في دورته الأكثر قومية..

هل المهرجان مجرد توزيع أضواء مسرحية على المحافظات؟

د. محمد علاء الخطيب

مع ختام فعاليات المهرجان القومي للمسرح المصري في دورته الثامنة عشرة في المحافظات، يمكن القول أنها- دون أدنى شك- شكلت عنصرًا فاصلًا في تاريخ المهرجان، وفي تاريخ القائمين عليه، كونها سابقة فنية وثقافية شهدتها المحافظات وأثلجت قلوب مسرحيها، بما تضمنته من ندوات فنية وعلمية، وورش متخصصة في مجالات (التمثيل، والإخراج، والكتابة، والديكور، والإلقاء، والتذوق الموسيقي)، وعروض مسرحية متميزة، حيث تآزرت الجهود وتكاملت الرؤى من النخبة المثقفة والفنانين المحترفين وهواة المسرح وإداري وزارة الثقافة، في تحويل المنشآت الثقافية – موسمية الطابع – إلى مبانٍ تنبض بالحياة الفنية لأيام متلاحقة في كافة أروقتها.

فقبل تلك الدورة قلما ما كانت تُجدول الورش الفنية المسرحية داخل جدران المراكز والقصور الثقافية في الأقاليم، ولا يكون الإعلان عنها بالصورة المرجوة، ولم تكن حتى فترات إقامتها ملبية لشغف فناني الأقاليم، الذين غالبًا ما يلقون اللوم على أقدارهم التي جعلتهم بعيدين عن مسارح العاصمة، فبقدر ما يحصلون عليه من هدوء بعيدًا عن ضوضاء العاصمة، بقدر ما يُحرمون منه من احتكاك فني على مستوى الممارسة والتلقي، لتطل عليهم الدورة الثامنة عشرة من المهرجان القومي للمسرح المصري، رافعة رايه العدالة الثقافية داخل أربعة محافظات على مستوى الجمهورية وهي (أسيوط، الإسكندرية، بورسعيد، طنطا).

ولم تكن تلك العدالة قاصرة على فاعليات فنية محدودة العدد، بل تضمنت عددًا وافرًا من التفاعلات الثقافية على مدار ما يقرب من أسبوعين، والتي لم تكن على هامش المهرجان، بل كانت في صميمه، وكان أهمها الورش الفنية المتخصصة، واللافت فيها أنه لم يتم اوكل القيام بها فقط إلى المدربين من أبناء المحافظة من باب تقليل النفقات وترشيد حجم الترتيبات اللوجستية، بل تعمدت إدارة المهرجان دعم ورش المحافظات بقامات فنية كبيرة من القاهرة، ليس تقليلًا من شأن مسرحي المحافظات الذين هم في الأساس جزء من النسيج المسرحي المصري، بل بدافع رفع درجات الحراك المسرحي، وتقديم رسالة ضمنية إلى ممارسي المسرح في الأقاليم، أن كسر المركزية ليس شعارًا لاستجداء النجاح للدورة قبل بدايتها، بل فعل حقيقي وملموس على أرض الواقع، ويعزز روح الانتماء إلى المسرح المصري.

كما امتدت الفاعليات الفنية لتغطي المحاور الفكرية من خلال الندوات الثقافية والعلمية المرتبطة بقضايا المسرح المعاصر، وتمت مناقشتها بمشاركة فاعلة بين الفنانين المسرحيين، والأساتذة الأكاديميين، والتي تعد نواة حقيقية لمؤتمرات علمية متخصصة، قادرة على حل العديد من مشكلات المسرح المصري، ولكي تكتمل بهجة المشهد المسرحي في الأقاليم، حرص المهرجان على تجويل العروض المميزة في النسخة الماضية من المهرجان إلى المحافظات، علاوة على ذلك حرصت إدارة المهرجان على تكريم الرموز المسرحية داخل محافظاتها، مع حرص إدارة المهرجان التي يرأسها الفنان «محمد رياض» للعام الثالث على التوالي، على الحضور في كافة المحافظات محل الفاعليات، أثناء افتتاح الفعاليات وفي ختامها، لتكون حفلات الختام أشبه بحفلات ختام المهرجان في القاهرة وسط سعادة مسرحيي الأقاليم المتعطشين لمثل هذه المحافل المسرحية الكبيرة داخل محافظاتهم.

إلا أن إنجازات تلك التجربة الرائدة لا تعفيها من النقد، الذي اتمناه أن يكون بناءً لنحافظ مكتسبات الدورة، وتخطي أخطائها لضمان استمراريتها وتوسعها في كامل ربوع الوطن، فعلى مستوى الورش الفنية، التي يسعى المهرجان إلى تقديمها بصورة مجانية منذ عدة دورات داخل القاهرة، فإنها -مع الأسف- تفتقد للهدف الرئيس منها، فإذا كان الهدف الرئيس من الورش هو نشر وتوسيع الثقافة الفنية المسرحية، فلن يقتصر عدد المقبولين في بعض الورش على عشرة أو عشرون مشتركا، حتى أن بعض المدربين قرر وضع ضوابط للمقبولين في الورشة تتمثل في قبول من هم مرتبطين مهنيًا أو دراسيًا بالمسرح، بسبب وصول عدد المتقدمين للورشة إلى ٩٦٠ متقدمًا، أما إذا كان الهدف الرئيس من الورش هو تطوير القدرات وتنمية المواهب المتحققة، فلن نجد أن بعض الورش يتجاوز عدد مشتركيها الخمسون مشتركا، مما دفع بعض المدربين إلى تحويل طبيعة الورشة – عملية الطابع – إلى محاضرات نظرية حتى يتمكن من التعامل مع هذا العدد، ناهيك عن عدم كفاية غرف التدريب -في بعض الأوقات- لاحتواء تلك الأعداد، وهل أنا بذلك ألقي باللوم على المدربين؟ إطلاقًا، فاللوم أبعد ما يكون عن المدرب، الذي لم يكن قادرا على تحديد منهجية العمل بطريقة حصيفة، بسبب فقدان الهدف الرئيس.

لذا على إدارة المهرجان -التي تتحلى بالبصيرة - أن تتفادى هذا الخطأ لتحقيق أعلى درجات الإنجاز من تلك الورش المجانية، وعندما نذكر أنها مجانية، إذن ينبغي منها أن تصل إلى جميع الفئات والمستويات الاجتماعية المرتبطة بالمسرح؛ لذا الهدف الرئيس من تلك الورش يجب أن يكون نشر الثقافة المسرحية، ودفع هواة المسرح لاكتشاف ذواتهم وتحقيقها فنيًا، من خلال مساندتهم في خطوتهم الأولى في سبيل التعلم وتنمية الموهبة، وفي تلك الحالة يجب عند طرح الورش للتسجيل أمام المتدربين، أن يتم الإعلان عن العدد المتاح لتلك الورشة، كما أنه من الضروري تنسيق الأمر مع المدرب، وطلب منه قبل الورشة بوقتٍ كافٍ تقديم منهجيته للعمل في ضوء ما وضعته الإدارة من هدف رئيس، الأمر الذي من شأنه تحديد عدد أيام والقاعات التي تحتاجها الورشة بصورة دقيقة؛ ومن ثم تحقيق الهدف المرجو من الورشة، وهو ما يجب أن نراه في صورة نتاج إبداعي ملموسًا في ختام الفعاليات.

أما على مستوى الندوات الثقافية والعلمية، والتي لم تقل في أهميتها عن الورش الفنية، فقد عانت في بعض الأحيان من ضعف الحضور، وتراجع التفاعل بحماس مع موضوعات الندوة؛ لذا يجب الوقوف على مواطن الضعف في تلك الندوات، خاصة وأن القائمين علي تنظيمها في المحافظات يمكن اعتبارهم من أهم العقول المبدعة في مصر، لكن تفتقد الندوات إلى ترتيبات مهمة وأساسية، كإرسال دعوات خاصة إلى أهم الفنانين من داخل المحافظة، وإلى الأساتذة الأكاديميين المتخصصين، علاوة على وضع متحدث أو أكثر في الندوة من فناني المسرح المشهورين سواء من داخل المحافظة أو خارجها، مما يضمن جذب أكبر عدد من الحضور، بجانب ضرورة الحرص على توثيق ونقل تلك الندوات من خلال صفحة المؤتمر الرسمية على وسائل التواصل الاجتماعي، الأمر الذي يُضمن به التنوير الفكري لأكبر عدد من العقول، من خلال النقاش وتبادل الآراء بين الحاضرين والمتحدثين، والتوصيات الحقيقية القابلة للتطبيق، التي يمكن اعتبارها مؤشرًا حقيقيًا لنجاح تلك الندوات.

وإذا ما أردنا أن نستخرج حصيلة تقييمية لفاعليات الدورة الثامنة عشرة من المهرجان القومي للمسرح المصري داخل المحافظات، فهي بكل تأكيد دورة ناجحة قبل انطلاق فاعليتها المركزية في القاهرة، لما استطاعت أن تقدمه لمسرحي الأقاليم من شعور بالإنصاف الثقافي والفني للمرة الأولى، وما عززته بداخلهم من روح الانتماء لفنية المسرح، والتي كنت ألمحها على أوجه هواة ومحترفي المسرح، فتعالت الابتسامات والروح الطيبة في أغلب الأحيان، وطغى الشعور بالامتنان على نقد بيئات العمل التي قد كانت غير مهيئة في بعض الأحيان، فقط كوننا جميعًا من محبي المسرح، نستطيع أن نحتوي بعضنا البعض، ليس بالضرورة أن أجلس على مقعد أو في قاعة ذات مكيف هواء جيد، بقدر ضرورة أن تظل تلك الفاعليات قائمة ومستمرة بسواعد فناني المسرح في كافة المحافظات؛ لذا لا يمكن القول إننا لامسنا سقف طموحاتنا وآمالنا في الدورة الثامنة عشر كفناني الأقاليم، بل أصبحنا أكثر توقًا للمزيد من الفاعليات من مهرجاننا المسرحي الأكثر أهمية، وهو ما يعطي مؤشر هام للقائمين على المهرجان، بأنه ما زال لدينا الكثير من العمل في الدورات المقبلة، لتحقيق حلم العدالة الثقافية على مستوى المهرجانات المسرحية الكبرى، وتعديل مسار المسرح المصري وإبعاده عن التأرجح داخل وجدان محبيه.